# ليسقط الفكر الإرهابي أولاً!

الياس خوري

كانت بيروت هي الشاهد والضحية. التجربة التي عجزت عن أن تتحول الى بداية جديدة، والعلامة التي حاول القمع العربي قتلها قبل أن يأتي العصر الاسرائيلي ويحرقها.

قبل بيروت كانت الهزيمة تأكل المجتمع العربي. منذ هزيمة ١٩٦٧ والعجز يقودنا الى هزائم جديدة.. والهزيمة تعلن بوصفها انتصاراً(!) حتى سئمنا الانتصارات... حتى هزيمة لبنان كادت الايديولوجية السائدة أن تعلنها انتصاراً لولا أنها وجدت نفسها مشلولة امام المذابح وجنون الموت.

الانتصارات الكاذبة لم تكن كاذبة... منذ هزيمة ١٩٦٧ والقمع ينتصر، والسلطات القائمة على القمع المطلق تحقق الانتصارات على شعوبها. ومع كل هزيمة أمام اسرائيل كانت الأنظمة تنتصر على الشعب، حتى كبرت اللعبة وبدأ المجتمع يتفتت. وإذا بالسلطات المنتصرة تحكم مدناً يسكنها الاشباح واذا بالناس تعيش دون الحد الأدنى للكرامة.

مقاومة بيروت وحربها الطويلة، كانت التعبير الوحيد المتاح كي يتم الاحتجاج على هذا الواقع. وحين كانت بيروت تلعب لعبة الموت وحيدة، كانت العواصم العربية تهزم وهي عاجزة عن المقاومة. كانت بيروت تختصر الاحتمال الأخير وحدها، وجاءت هزيمتها لتعلن نهاية مرحلة كاملة.

العصر الاسرائيلي هو تتويج لعصور القمع. ممالك الطوائف يحصدها الوحش التكنولوجي.. أنظمة الساعة العربية الأخيرة لا تجرؤ على الحرب ولا تستطيع سلاماً لا يكون استسلاماً. لا تنتصر ولا تعرف كيف تنهزم. فالذي لا يعرف كيف ينهزم لا يستطيع أن ينتصر على الاطلاق.

بعد معركة بيروت تبدأ مرحلة جديدة في العالم العربي. عصر الخوف الاسرائيلي يسعى الى فرض هيمنته المطلقة عبر تفتيت المجتمع الى طوائف والطوائف الى عصبيات... وفي لبنان، الذي تريده اسرائيل بوابة للعبور الى المنطقة بأسرها، تجري فصول المسرحية الدموية أمام العالم العربي النائم. ولا تجد من يقاومها سوى شعب جريح وممزّق، ومدينة أحرقها القصف والموت.

السؤال الأول الذي نطرحه وسط الهزيمة هو سؤال عن واقعنا. سؤال الذين قاتلوا وهم يعلمون ان الهزيمة حتمية. فالقتال كان التعبير الأخير وسط عالم عربي شاسع يُخنق فيه كل تعبير. كيف يمكن ان يحارب العرب وهم مسحوقون في حياتهم اليومية. كيف يمكن للكاتب ان يكتب حين يجبر على الخيار بين أن يكون عبداً أو يُقتل. كيف يستطيع المجتمع أن يدافع عن نفسه وهو يستباح كل يوم ويسحق كل يوم؟

السؤال الأول هو سؤال الديمقراطية. الذين جعلوا الشعب قاصراً وحولوا المثقفين الى حيوانات داجنة والزعماء الى آلهة، ودفعوا الناس الى اليأس المطلق، هم الذين حولوا القتال في لبنان الى هزيمة.

والخروج من الهزيمة يفترض وعي سببها الرئيسي والعميق.

هزيمة بيروت كانت حتمية، لأن بيروت، قبل أن يحاصرها الجيش الاسرائيلي، كانت محاصرة بالقمع العربي، ولأن هذا القمع بدأ يتسلل اليها، ولأن المشروع الديمقراطي في لبنان ضربته الأنظمة العربية قبل أن تسحقه اسرائيل، ولأن سياسة الحلول الوسط مع القمع العربي والعجز عن مواجهة المشكلات العينية قادت الى الفشل.

سؤال الديمقراطية هو سؤال المجتمع المدني. فباسم ماذا تمت تصفية مؤسسات المجتمع المدني وضُرب التعبير الأهلي، ولم يبق أمام الناس سوى النصوص المقدسة كأداة أخيرة؟ إن مصادرة المجتمع المدني قادت الى العجز عن

التعامل مع الصراع، فتحول المجتمع الى جسد منهوك القوى.

سؤال الديمقراطية هو سؤالنا لانفسنا. فالثقافة العربية كانت جزءاً من هذا الموت البطيء. حذف الاسئلة الحقيقية، التستّر على القمع، الخوف، تقديس الماضي، عبادة السلطة، غياب النقد، التواطؤ مع الارهاب والتستر عليه، جعل الصراع مع اسرائيل فزّاعة لمنع أي نقاش، الجمود، الانحطاط...

هذا هو عصر الانحطاط بامتياز، ونحن متهمون جميعاً.

الى متى تبقى أقلامنا خرساء خوفاً من القتل يحيط بنا من كل جانب؟ نحن شهود الساعة الأخيرة ولا نشهد(!) قبل أن يساهم المثقف بإنقاذ أمته عليه أن ينقذ نفسه. قبل أن يعلّم عليه أن يتعلّم. قبل أن يمترن الكتابة عن الموت عليه أن ينظر في الموت، وقبل أن يكتب عليه أن يتوقف عن لعبة مهرج السلطان.

سؤال الهزيمة هو سؤال السلطة ومعنى السلطة وعلاقة سلطة الكتابة بكتابة السلطة. والمأزق الذي بدأ منذ هزيمة ١٩٦٧ كشف هزال الشعارات التي لا تتحول الى قراءة نقدية للواقع. فالفكر الارهابي الذي يرر كل ارهاب يجب أن يسقط أولا، والوحدة الاجتماعية لا تقوم إلا ضمن مشروع طوعي يقبل بالآخر ويحترم حريته. وهنا تبدأ مسيرة مقاومة الاحتلال.

الهزيمة أمام اسرائيل تعلن العودة الى اجواء القرن التاسع عشر، حيث يتفكك المجتمع في حروب طائفية، وحيث يعاد رسم خرائط المنطقة ضد ارادة شعوبها، وحيث الشعوب مسلوبة الارادة أمام توحش انكشارية السلطان.

نحن هنا، في نقطة الرعب هذه. والجديد يبدأ من الاعتراف بالواقع ومعرفته من أجل تغييره.

هل تستطيع مقاومة بيروت، هل تستطيع هذه المأساة اللبنانية ـ الفلسطينية أن تزرع بذور وعي جديد؟ هل نحن قادرون على النظر في واقعنا واعادة النظر في اسباب انحطاطنا؟

الجواب على هذه الاسئلة، تلمّس الجواب، وهو بداية الخروج. قراءة الواقع بلغته هو مقدمة إبداعه..

هل نحن نعيش هذه المقدمة وسط آلام الروح، وسط الخيانة التي تحاصرنا، وسط مدينة يحتلها شبح الاحتلال ويحاصرها الموت العربي، أم اننا مجرد شهود وضحايا؟

بيروت

---


دار الآداب

الدكتور حسين جمعة

قضايا الإبداع الفني